مشروع العم عبد الحفيظ

الكاتبة الراحلة



أماني العشماوي

(رحمها الله)

مشروع العم عبد الحفيظ

أماني العشماوي

دخلتُ المطبخَ، فوجدتُ أختي عُلا تنظرُ من النافذةِ وهي تأكلُ شطيرتَها، والتفتَتْ نحوي وقالت: "أسرعْ ياعادل.. إنه الرجلُ المُتنكرُ مرةً أخرى".

كانت هذه المرةَ الرابعةَ التي ترى عُلا هذ الرجلَ المتنكرَ.. وكانت متأكدةً أنه جاسوسٌ. فنظرتُ معها من النافذةِ.. فرأيتُ السيدَ عبدَ الحفيظِ يسيرُ على الرصيفِ، ويدفعُ أمامَهُ عربةَ حديقةً ذات عجلةٍ واحدةٍ مغطاةً بمفرشٍ.

قلتُ: "إنه السيدُ عبدُ الحفيظِ".

قالت عُلا باستنكارٍ: "وماهذه الطاقيةُ التي يُغَطي بها رأسَهُ ونصفَ وجهِهِ"؟!

قلتُ: "الدنيا بردٌ ياعُلا".

قالت: "وما هذه العربةَ العجيبةَ.. أين يذهبُ بها"؟

ضحكتُ.. فهذه هي أختي عُلا.. تَصلحُ للعملِ في وكالةِ أنباءٍ.. من شدةِ حبِها للإثارةِ.

قلتُ لها: "هيا بنا ننزلُ ونسألُهُ".

انطلقَتْ عُلا أمامي، وقالت وهي تفتحُ البابَ: "السلامُ عليكُم". ونزلت السُلَّمَ مُسرعةً.

كانَ والدايّ يجلسان في الشُّرفةِ، يشربان القهوةَ. فقالت أمي: "هل حضرت الحافلةُ مُبكرةً؟".

قلت باستعجالٍ: "سننتظرُها تحت.. لأننا نتابعُ قضيةً مهمةً". فضحكَ الاثنان.

وقفت عُلا عند المدخلِ.. فلما رأتني قالت: "الحمدُ للهِ أننا فكرنا في النزولِ ومتابعتُهُ من هنا.. لقد اتجهَ يسارًا في شارعِ الخليلَ بن أحمدَ".

هذه هي طريقَةُ أختي عُلا في الكلام.. كل ما يَقولُهُ أو يفعلُهُ أحدُنا، تعتبرُ أننا مُشتركان فيه.. وتتحدثُ عنه بصيغةِ الجمع.

وصلَ العمُ عبدُ الحفيظِ إلى قطعةِ أرضٍ فضاءٍ، مغطاةً بمخلفاتِ البناءِ وبقايا القمامةِ.. أَنزلَ العربةَ إلى الأرضِ، وكشفَ عنها الغطاءَ، وأخرجَ شوكةً وجاروفًا، وراحَ يعملُ.

وقفنا عندَ حافةِ الأرضِ نتأملَهُ. كان يُنظفُ مستطيلاً واحدًا محددًا بالحجارة، من جهةِ الشارعِ.. كان أغلبُهُ نظيفًا ومزروعًا فيه شجيراتٍ محاطةً بأعوادِ الغابِ.

قالت أختي بصوتٍ مرتفعٍ: "صباحُ الخيرِ ياعم عبد الحفيظ".

رفعَ رأسَهُ وقالَ: "صباحُ الخيرِ ياعُلا.. وياعادل".

قَرْفَصْتُ على الأرضِ وسألْتُهُ: "ماذا تفعلُ؟".

ابتسمَ ابتسامةً خفيفةً.. لكنها كانت أكبرُ ابتسامةً يراها أحدٌ من أهلِ الحيِّ.. وقالَ ببطءٍ: "أُصلِحَ أرضًا بورًا".

قالت عُلا: "أليست هذه أرضُكَ"؟

قالَ وقد عاد إلى التنظيفِ: "نعم، لكني سأوقِفُها لوجهِ اللهِ على سكانِ الحيِّ ومن يأتي إليها من أي مكانٍ.. أسرعا، ستفوتَكُما حافلةُ المدرسةِ".

تلفتنا أنا وأختي بِحيرَةٍ: هل نلحَقُ بالحافلةِ أو نُتابِعُ القضيةَ.. ثم قررنا اللحاقَ بالحافلَةِ، فانطلقنا نجري.

أُحيلَ العمُ عبدُ الحفيظِ إلى التقاعُدِ في العامِ السابقِ، وكان مشهورًا بأنه رجلُ صارمُ، دائمُ الانشغالِ، له ابنانِ، أحدُهُما يعملُ في الخارجِ، والآخرُ يعملُ في شركةِ نفطٍ في البحرِ الأحمرَ، ويأتي في فتراتٍ مُتباعدَةٍ.

في الصباحِ التالي، كنا مستعدينَ قبلَ أن نسمعَ جرسَ المُنبهِ.. وكتبتُ رسالةً لأمي أخبرُها أننا نزلنا مُبكرينَ لنُتابعَ القضيةَ.. ثم انطلقنا.

وصلنا الأرضَ قبلَ وصولَ عم عبد الحفيظ.. فرحنا نتأملُ شتلاتِ الشُجيراتِ المَزروعَةِ، وقلت لأختي: "هذه الشُجيراتُ ورقُها يُشبهُ ورقَ الحِمضياتِ".

سمعتُ عم عبد الحفيظ يقولُ: "صحيحٌ، إنها أشجارُ ليمونٍ".

أخذتُ منه العربةَ وأنزلتُها إلى الأرضِ، وسألتُهُ: "وما هذا الوَقْفُ"؟

قال: "إنها أرضٌ، اشتريتُها منذ زمنٍ، ثم أحببتُ أن أحوِلُها إلى حديقةٍ عامةٍ، لا تُباعُ ولا تُشترى، وإنما تظلُّ وقفًا لوجهِ اللهِ.. وليس معي مالٌ يكفي لهذا المشروعِ. ففكرتُ أن أعملَ فيها بنفسي، حتى يأذنَ اللهُ بمن يُساعدني".

قالت عُلا بحماسٍ: "نَطلبُ من أهلِ الحيِّ مساعدَتُنا".

راحَ يرفعُ القمامَةَ والأنقاضَ ويضعُها في العربةِ، وهو يقولُ: "طلبتُ كثيرًا.. لكنهم مشغولونَ في أعمالٍ أخرى.. ثم إنه وقفي أنا".

قلتُ: "إذن اعتبرُنا من فريقِكَ.. سنعملُ معك".

قالَ دونَ أن يقطعَ عملَهُ: "في العُطلاتِ فقط".

قلنا: "حاضر.. اتفقنا".

بعد قليلٍ، لمحنا الحافلةَ قادمةً.. فانطلقنا نجري.

يومُ الجُمُعةِ، أفطرنا على مائدَةِ المطبخِ مع والديْنا، مثلَ كلِ العُطلاتِ.. فسألَتْ عُلا: "ما هو الوَقْفُ يا أبي"؟

فقالَ: عندما يُقدِمُ صاحبَ المِلْكِ ما يملكُهُ للمصلحةِ العامةِ، أو الخاصةِ، وقد يكونُ مبنًى أو أرضًا أو سيارةً؛ فيُخرجُهُ من مِلكِهِ ويُوقِفُهُ لوجهِ اللهِ، فلا يُباعُ ولا يُشترى ولا يُستعملُ إلا فيما قَصدَهُ صاحبُ الوَقْفِ".

فحكينا لوالدينا عن مشروعِ العمِ عبدِ الحفيظِ.. واستأذناهُما أن نذهبَ لنساعِدَهُ، وأسرعنا إلى الأرضِ، ورحنا نعملُ بجدٍ واجتهادٍ.. حتى المغربَ.

قبلَ أن ننصرفَ، قالت عُلا: "أمامُنا خمسُ سنواتٍ لننتهي من الحديقةِ".

قلتُ: "لابدَ أن نستعينَ بالجيرانِ".. ثم خطرَتْ في بالي فكرةٌ.. فقلتُ: "عندي فكرةٌ لجذبِ اهتمامِهِم"

يومَ الخميسِ التالي، استعرتُ العربةَ من عمٍ عبدِ الحفيظِ.. ويومُ الجُمعةُ، وضعنا فيها دلوًا مقلوبًا، قعدت عليه أختي عُلا، والتَفَّتْ بمفرشِ السُفرةِ المنقوشِ، وعلى رأسِها حزامًا غَرَسَت فيه بعضَ الأغصانِ المُورقةِ، وأمسكتْ بيديْها الشَوكةَ والجاروفَ مرفوعينِ لأعلى. ولففتُ أنا حولَ وَسَطِي ستارةَ الحمامِ، ووضعتُ على رأسي كيسًا من الورقِ البُنْيِّ به شقوقٍ لأرى منها وأَتنفسُ، وعلى ظهري حقيبةَ المدرسةِ وقد برزَ منها أعوادًا كثيرةَ من البُوصِ.

رحتُ أدفعُ العربةَ.. وأختي عُلا جالسةً عليها.. وسرنا في طُرقاتِ الحيّ كلِها قبلَ أن نصلَ إلى الأرضِ. ثم انشغلنا مع العمِ عبد الحفيظ في التنظيفِ والزرعِ.. وبعد قليلٍ،

سمعنا من ينادينا، وإذا نصفُ أبناءِ الحيِّ يقفونَ على حافةِ الأرضِ، يتأملونَ ما نفعلُهُ.

قال أحدُهم: "ماذا تفعلون"؟

قلتُ: "نُنشِئُ حديقةً عامةً".

قالَ آخرُ: "ولماذا كنتُما تسيران بهذه الطريقةِ الغريبةِ"؟!

ردَّتْ عُلا بسرعةٍ: "إنه احتفالٌ خاصٌ بالزراعةِ"!!

صاحَ ثالثٌ: "نُحبُ أن نُساعدُكُم".

قلتُ: "تفضلوا"!!

في الجمعةِ التاليةِ، حضرَ أربعةٌ من أولادِ وبناتِ الحيِّ.. وظلوا يعملون معنا حتى المغربَ.. فزادونا حماسًا، لأننا كدنا ننتهي من المستطيلِ الثاني.

في البيتِ، وجدنا والديْنا ينتظرانا في الشرفةِ.

فقلتُ: "حضرَ اليومُ أربعةُ من أولادِ الحيِّ لمساعدتِنا".

قالَ أبي: "ممتازٌ!! كما اتصل بنا كثيرٌ من الجيرانِ، يستفسرونَ عن الاستعراضِ الذي قمتما به في الجمعَةِ الماضيةِ""!

فابتسمتُ بسعادةٍ.. فقد كانت فكرةٌ عبقريةٌ!!

تابعَ أبي: "واتفقنا على لقاءٍ اليومَ.. عرضنا مشروعًا من اقتراحي على من حضرَ الاجتماعَ".

هبت عُلا واقفةً من شدةِ الاستثارةِ وهي تقولُ: "ما هو اقتراحُك يا أبي"؟

قالَ: "أن نُخصِّصَ جزءً من الحديقةِ العامةِ، لنبني فيه مكتبةً عامةً".

كانَ دوري أنا لأقفَ من الانفعالَ، وتزاحمت الأفكارُ في عقلي: "من أين سنأتي بمصاريفَ البناءِ والتجهيزِ؟ من أين سنأتي بالكتبِ؟ ومن سيُديرُها"؟

تابعَ أبي: "كتبنا عن المشروعِ في ورقَةٍ، وطبعنا منها نسخًا لنُوزعُها على سكانِ الحي. وكلُّ من يريدُ المساهمةَ، بقدرِ طاقتِهِ، فليتفضل.. ووالدتُكُما تكفلت بإدارةِ المكتبةِ".

قالت أمي: "وتعهدَ السيدُ إبراهيمُ أن يُحضرَ الطوبَ الكافي للبناءَ، هديةً منه، وشريكُهُ في العملَ تَبَرَّعَ بالأسمنت".

قالِ أبي: "واتفقتُ مع بناءٍ ممتازٍ يعملُ في الشركَةِ، وتكفلَ بعضُ الجيرانِ بدفعِ أجرةَ هذا البناءِ.. والأستاذةُ نهى تكفلت بشراءِ مجموعاتِ الكتبِ من مخازنَ المكتباتِ، وبالاتفاقِ مع دورِ النشرِ لإهدائِنا من كتبِهم".

سألت علا: "كيفَ يُدارُ هذا الوَقْفُ"؟

شعرتُ بالفخرِ لذكاءِ أختي وملاحظاتِها، وقال أبي: "لقد اخترنا العمَّ عبدَ الحفيظِ ليكونَ مسؤولًا عن إدارتِهِ".

آخرُ ما قالتْهُ لي عُلا، عبرَ الحاجِزِ الخشبيّ الفاصلِ بين جزئَيِّ الغرفَةِ: "أشعُرُ أنني كبرتُ جدًا، فالعملُ في مشروعٍ كبيرٍ.. أشعرني أنني أزدادُ عقلًا".

أغمضتُ عينيَّ وقلتُ: "وأنا أشعرُ أن قلبي اتسعَ جدًا.. فالعملُ في مشروعٍ ينفعُ الناسَ، أَشعرني أنني قريبٌ منهم جدًا".